﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ [النحل: 76]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَثَلٌ آخر يدلُّ على بُطلان شِركهم، بوجهٍ أوضحَ لا تُمكِنُ المكابرةُ فيه

لما أكّدَ اللّهُ في الآية السّابقة بطلانَ مذهبِ عَبَدةِ الأصنامِ وعجّزَ معبوداتهم بذِكْرِ مَثَلِ العبدِ العاجزِ والحرِّ القادر اللّذيْن لا يستويان أتْبعَه بمثَلٍ آخر، وهو مَثَلُ الأبكمِ العاجز الّذي لا يأتي بخيرٍ والنّاطقِ القادرِ الآمرِ بالعدلِ فيه فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبۡكَمُ﴾: أصْلُ (بكم): أصلٌ واحِدٌ قَليلٌ، وهو الخَرَسُ، والأبْكَمُ: الأخْرَسُ لا يتكلَّمُ، وإذا امتَنَعَ مِنَ الكَلام جَهْلًا أو تَعَمُّدًا يُقالُ: بَكِمَ عَنِ الكَلامِ، وقَدْ يُقالُ لِلَّذي لا يُفْصِحُ: إنَّهُ لَأبْكَمُ[1]، وقيل البَكَمُ: الخرَسُ مَعَ عِيٍّ وبَلَهٍ، وقيل: الأبْكَمُ هو مَنْ وُلِدَ لا يَتَكَلَّمُ، والأُنْثَى: بَكْماءُ، وقيل: هو الإنْسانُ لا يَنْطِقُ ولا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ، وجَمعُه: بُكْمٌ، ويُطْلَقُ على مَن لا يعْقِل الجوابَ ولا يُحْسِن وجْه الكَلام، وعلى الأقْطَعِ اللِّسان[2]، والمُراد بالأبْكَم في الآية: المَوصوفُ بالبَكَم، وهو الخَرَسُ في أصْلِ الخِلْقَةِ من وقْتِ الولادَةِ، بحَيثُ لا يَفْهَمُ ولا يُفْهِمُ[3].

2) ﴿كَلٌّ﴾: أصلُ (كلّ): يَدُلُّ على خِلافِ الحِدَّةِ، والكَليلُ: السَّيْفُ يَكِلُّ حَدُّهُ، والكَلُّ: الّذي هو عيالٌ وثقلٌ على صاحبه، وكلَّ الرَّجلُ: إذا ذهبَ وتركَ عيالَه بمَضْيَعَة، والكالّ: المعيي، ويُقال:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بكم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 227.

الكَلُّ: اليَتيمُ؛ وسُمِّيَ بذلكَ لِإدارَتِه[1]، وكَلَّ يَكِلُّ كَلًّا وكَلالًا وكَلالة: تعب وأعيا، وأصبحَ فلانٌ مُكِلًّا: إذا صار ذَوو قرابَته كلًّا عليه؛ أيْ: عيالًا[2]، والكَلُّ أيضًا: المُصيبَةُ تحدُث، والأصل مِنْ كَلَّ عَنْهُ؛ أيْ: نَبا وضعُف، والكَلّ أيضًا: الثّقيلُ لا خيرَ فيه، والكَلالة: الرَّجُلُ الَّذي لا ولَدَ لَهُ ولا والِدَ[3].

والمقصود بالكَلِّ في الآية: غليظ وثقيل على مولاه[4]، وعالة على كافله لا يُدبّر أمر نفسه[5].

3) ﴿مَوْلَىٰهُ﴾: أصْلُ (ولي) يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، وكُلُّ مَنْ ولِيَ أمرَ آخَرَ فهوَ وليُّهُ، والموالاة: اتّخاذُ المَوْلى[6]، والمَوْلَى: الَّذي يَلِي عَلَيْك أمرَك، وهو الَّذي يُسلِم على يدك ويواليك، والمَولَى: مولَى النِّعمة، وهوَ المُعْتِق أنعَم على عَبْده بعِتْقِه، والمَولى: المُعْتَق؛ لِأنَّهُ ينزل منزلَة ابن العَمِّ، يجب علَيكَ أن تَنْصره، وترثه إن ماتَ ولا وارِثَ لَهُ[7]، والولاء والتّوالي يُستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النّسب، ومن حيث الدّين، ومن حيث الصّداقة والنُّصرة والاعتقاد، والوَليُّ والمولى يستعملان في كلّ ذلك، فالمولى: النّاصر والمُنعِم وابن العمّ والحليف والعقيد[8]، والمقصود بالمَوْلَى في الآية الكريمة: الَّذي يَلِي أمرَ غَيْرِه، والمُراد: هو عالَةٌ على كافِلِه لا يُدَبِّرُ أمرَ نَفْسِه[9].

4) ﴿يُوَجِّههُّ﴾: أصلُ (وجه) يَدُلُّ على مُقابلَةِ لِشَيءٍ، والوَجْهُ مُسْتَقْبِلُ لِكُلِّ شَيءٍ، يُقالُ: وجْهُ الرَّجُلِ وغيره، وواجَهْتُ فُلانًا: جَعَلْتُ وجْهِيَ تِلْقاءَ وجْهِه، والوِجْهَةُ: كُلُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلْتَهُ، ووَجَّهْتُ الشَّيءَ: جعلتَه عَلَى جِهَةٍ، وأصْلُ جِهَتِه وِجْهَتُهُ[10]، وهما: الموضعُ الَّذي تَتَوَجَّهُ إلَيْهِ وتَقْصِدُهُ، وضَلَّ وِجْهَةَ أمرِه؛ أيْ: قَصْدَهُ، وتوَجَّه إلَيْه: ذَهَبَ[11]، والمُراد بقوله:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكَم: (كل).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كل).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 248.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(8) الرّاغب، المُفردات، ص: 885، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: 4/ 342.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجه).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (وجه).

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُّ﴾: أيّ: يبعثه مَولاهُ ويُرسله، أو يأمره في عَمَلٍ ليَعمَلَهُ أو يأتِيَ به، لا يأْتِ بِخَيرٍ؛ أيّ: لا يَهْتَدِي إلى ما وُجِّهَ إليهِ[1].

5) ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: أصلُ (عدل) يَدُلُّ على اسْتِواءٍ، والعدلُ: نَقيضُ الجَوْرِ، والعَدْلُ: قِيمَةُ الشَّيْءِ وفِداؤُهُ، والعَدْلُ: المَرْضيُّ من النّاسِ قولُهُ وحُكْمُهُ المُسْتَوِي الطَّرِيقَةِ[2]، والعَدْلُ القَصْدُ في الأُمورِ، وما قامَ في النُّفوس أنَّه مُستقيم، وقيل: هو الأمرِ المتَوسِّط بَيْنَ طرفي الإفراط والتَّفريطِ[3]، ويأتي بمعنى الحُكم بالحقِّ، يُقالُ: عدَلَ، يَعْدِلُ، عَدلًا: إذا حَكَمَ بالعَدْلِ، وكُلُّ ذَلِكَ مِنَ المُعادَلَةِ، وهيَ المُساواةُ[4]، والمقصودُ بالعَدْلِ في الآية: الحَقُّ والصَّوابُ الموافِقُ للواقِعِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا تساوي في ميزانِ العقلِ بين الحائز على صِفاتِ الكَمالِ المُطْلَق وفاقِدِها

ضرَب اللّهُ مثلًا آخر يدلُّ على ما يدلُّ عليه المثَل السّابق على وجه أظهرَ وأوضحَ، فقال: وضرَبَ اللّهُ لكم مثلًا لنَفسِه وللأصنام الّتي تُعبَدُ مِن دونه؛ كرَجُلَيْنِ أحَدُهما لا يَنطِقُ، ولا يَسمَعُ، ولا يَعقِلُ، عاجِزٌ لا يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن جَلبِ نَفعٍ، أو دَفْعِ ضُرٍّ، وهو مع عدَمِ نُطقِه وعَجزِه ثَقيلٌ على مَن يلي أمرَه ويَعولُه، وأينما يُرسِلْه مَولاه في عمَلٍ لِيَعمَلَه لا ينجَحُ فيه، فهو لا يأتي بخَيرٍ، ولا يَقضي حاجةً؛ لعَجزِه وعدَمِ فهمِه لِما يُقالُ له، وعَدَمِ قُدرتِه على التَّعبيرِ عمّا يُريدُ؛ فكذلك شأنَ الصَّنَمُ لا يَعقِلُ ما يُقالُ له، ولا يَنطِقُ بشَيءٍ، فلا يأتي بخيرٍ، أو يقضي حاجةً، فهل يستوي هذا الأبكَمُ الكَلُّ على مَولاه الَّذي لا يأتي بخيرٍ حيثما توجَّهَ، ومَن هو ناطقٌ مُتكلِّمٌ قادِرٌ يأمُرُ بالحقِّ والقِسْطِ، ويدعو إليه، وهو في نفسِه - مع ما ذُكِرَ مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير، والزّبيديّ، تاج العروس: (عدل).
(4) ابن سِيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.

نَفعِه العامِّ - على طريقِ الحقِّ لا يَنحَرِفُ عنه، عامِلٌ بما يأمُرُ به، ويدعو إليه، ولا يتوجَّهُ إلى مطلَبٍ إلّا ويبلُغُه بأقرَبِ سَعيٍ وأسهَلِه، فهو عادِلٌ في أقوالِه، مُستقيمٌ في أفعالِه؟! فإذا امتنَعَ التَّساوي بين هذيْن الصِّنفَيْنِ المَذكورَيْنِ، فكذلك يمتنِعُ التَّساوي بينَ اللّه سُبحانَه العادِلِ الَّذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو قائِمٌ بالقِسْطِ على صراطٍ مُستقيمٍ وبينَ ما يَجعَلونَه شُرَكاءَ له[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ عطْفِ الآية على سابقتها:

المَثَلُ حُجّةٌ أخرى، بيَّنها اللّه تعالى لإبطالِ الشِّرك

الواو في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، والمعنى المُشترك بينهما أنّ كليهما مَثَلٌ يُدلَّلُ به على أنّ الكُفّار مخطئون في مساواتهم بين الأصنام وبين اللّه ﷻ، ولكنّه ذَكَرَ أولًا عبدًا غيرَ أبكم وجعله مثلًا للصَّنم في نفيِ المِلْكِ، ثمَّ زاده نقصًا بقوله: ﴿أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾؛ فدلّ على أنّه أراد عبدًا أبكمَ بدلالة ذِكْرِ المولى وتوجيهه؛ وذلك مبالغةً في وصف الأصنام بالنقْص وقلةِ الخير[2]، كما أنّ المَثَل الثّاني يختلف عن الأوّل في وجهِ الشَّبه.

بلاغة ذِكْر الاسمِ الظّاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ في السّياق:

في إظهارِ الاسمِ الجليلِ، تفخيمٌ للمَثَلِ المضروبِ، ومهابة لعلّام الغيوب

رغْم دلالة السّياق على الاسم الظاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾؛ إذ إنّ الآية عطْفٌ على الآية السّابقة ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكًا﴾ رغم ذلك لم تأتِ الآية بالضَّمير المُقدَّر للعلم بالمقصود؛ أيْ: لم يَقُلْ سبحانه: (وضرب مثلًا رجلَيْن)،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 310، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 589، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 220، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 218، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 391.

(2) الجصّاص، أحكام القرآن: 3/ 243.

وإنَّما أقام القرآنُ الاسمَ الظاهرَ مقامَ المُضْمر تفخيمًا للمَثَل المضْروب بذكرِ ضاربِ المثَل ﷻ وتربيةً لمهابة الله في أنفسهم الّتي تجرّأتْ على الله فاتخذتْ أندادًا من دون الله، ولذا تكرّر ذِكرُ الاسم الجليل في سورة النّحل أربعًا وثمانين مرّةً، ولأنّ سياقها في التّوحيد، والنّهي عن الشّرك ولفظ (الله) تتعلق بالعبادة والعبودية، فالتّصريح بذكره هو الأنسب هنا[1].

بلاغة التّنوُّع في أسلوب التّشبيه من خلال المَثَلَيْن المضروبَيْن:

تفنُّنٌ في الأسلوب، لتثبيت القلوب، ولبيان أن الله لا يشبهه شيء من الأنام

قرنَ البيانُ القرآنيّ في المثالِ الثّاني حالَ الرَّجلَيْن ابتداءً، ثمَّ فصَلَ في آخرِ الكلام مع ذِكْر عدم التّسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز؛ إذ حُذف من صدرِ التّمثيل ذِكْر الرَّجل الثّاني للاقتصار على ذِكْره في استنتاج عدم التّسوية تفنُّنًا في المخالفة بين أسلوب هذا التّمثيل وأسلوب سابقه في قوله تعالى: ﴿*ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾[2].

الغرض من تنكير ﴿مَثَلًا﴾:

في إبهامِ المثَل تفخيمٌ وتعظيمٌ وتشويقٌ

نكّر البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿مَثَلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾؛ لإفادة الإبهام؛ إذْ أبهم المثَل في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، ثمَّ فسّر بقوله: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ الآية، وهذا الإبهامُ للمَثَل ثمَّ تفسيرُه فيه ما فيه من تفخيم المثَل وتعظيمه، و"لتنتظرَ النَّفسُ إلى وروده، وتترقّبه حتّى يتمكّن لديها عند وُروده"[3].

نكتةُ العُدول من لفظ (رجلًا) إلى ﴿رَّجُلَيْنِ﴾:

التّسويةُ بين رجلٍ كاملٍ (المؤمن)، ورجلٍ ناقصٍ (الكافر) لا يقبله العقلُ

عَدَلَ البيانُ القرآني من قوله في المثَل السّابق ﴿عَبْدًا﴾؛ أيْ: رجلًا إلى ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 832.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 227.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.

ولم يَقُلْ: (وضرب الله عبدًا) أو (رجلًا)، ويمكن أنْ نفهم من هذا العدول الدّلالةَ على أنّه مَثَلٌ للرّجل الكافر الّذي يُمثّله الأبكم، وللرّجل المؤمن الّذي يُمثّله مَنْ يأمر بالعدل، وهو على صراطٍ مستقيم[1].

دلالة الموقع النّحويّ، للفظ ﴿رَّجُلَيْنِ﴾:

في البدليّةِ بيانٌ لأهميّةِ المَثَل المضروبِ، ولضرورةِ الاتّعاظِ به

الموقعُ النّحويّ للفظةِ ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ بدلٌ من ﴿مَثَلًا﴾[2]، وقد جاءَ البدلُ بيانًا للإبهام في كلمة ﴿مَثَلًا﴾، "ثمَّ استأنفَ البيانُ لما أجمل فقال تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾"[3]، وفي البيانِ بعد الإجمالِ تشويقٌ للنّفس، وبيانٌ لأهميّة المَثَل المضروب، ولضرورةِ الوقوف عليه والاتّعاظ به.

نكتةُ فصْلِ قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾:

في البيانِ بعد الإجمالِ، تقريرٌ لمضمونِ المبيَّن، بعد التّشويقِ بإجماله

فَصَلَ البيانُ الإلهيّ جملةَ ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ عمّا قبلها، ولم يأتِ بالعاطف؛ لأنّه استأنفَ البيانَ لِما أجمل في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾[4]؛ أيْ: بينَ الجملتيْن كمالُ اتّصال، وفي هذا البيانِ للرّجليْن بعد الإجمالِ تقريرٌ لمضمونِ المبيَّن اهتمامًا به بعد التّشويقِ بإجماله.

سرّ وصفِه بالبَكَم بلفظ ﴿أَبۡكَمُ﴾:

إظهار الكمال في العجز، بحيث إنّه لا يَفْهَمُ ولا يُفْهِمُ

وصَفَ البيانُ القرآنيُّ الرَّجل في المثَل بالأبْكم، وهو الموصوف بالبَكَم بفتح الباء والكاف، وهو الخَرَس في أصلِ الخِلقة من وقتِ الولادة، ويلزمهُ الصَّمم؛ لأنَّ الكلام وليدُ السَّمع، فصاحبُه لا يَفْهَمُ لعدمِ السَّمع، ولا يُفْهِمُ غيره لعدمِ النّطق، والإشارةُ لا يعتدُّ بها لعدمِ تفهيمها حقَّ التّفهيم لكلِّ أحدٍ، فكأنَّه قيل: أحدهما أخرسُ أصمُّ لا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8102.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 219.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 219.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 219.

يَفْهَمُ ولا يُفْهِمُ[1]، وفي هذا دلالةٌ على زيادةِ عجزه، بخلافِ ما لو عبّر بالأخرس؛ إذْ كلُّ أبكم أخرسُ، وليس كلُّ أخرس أبكمَ.

كما ذكر المُفسّرون أقوالًا أخرى في معنى الأبكم تؤكّد المبالغةَ في عجْزه، منها: أنَّه الّذي لا يعقل، أو الأبكم المُطْبَقُ الّذي لا يسْمعُ ولا يبصرُ[2].

الغرض من التّشبيه البليغ في ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾:

تصويرُ صورةِ الأبكمِ، بأنّه الّذي لا يُنتفعُ منه بشيء

الإخبارُ عن أحَد الرَّجلَيْن في المَثَل في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ جاءَ على طريقةِ التّشبيهِ البليغ؛ إذ شُبّهَ في انعدامِ آثارِ الفهم والإفهام منه وتعذّرِ طمعِ رجوعه إلى رشدٍ أو صوابٍ بالأبكمِ الّذي انعدمَ منه النُّطق منذُ الولادة بحيثُ لا يَفْهَمُ ولا يُفْهِمُ، أو هي استعارةٌ تمثيليةٌ، مثّلَ فيها الوثنَ بالأبكم الّذي لا يُنتفعُ منه بشيءٍ أصلًا مع القادر السّميع البصير، فشتّان ما بين الرَّبِّ والصَّنم[3].

سِرُّ وصفه بأنّه لا يقدر على شيء:

العجزُ التّامُّ للأصنامِ، دليلٌ على بُطلانِ استحقاقِها للعبادة

زاد البيانُ القرآنيّ في وصفِ الأبكم بأنّه لا يقدرُ على شيءٍ في قوله تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ ومقصودُ ذلك الإخبارُ عن صفتِه الحاليّة؛ أيْ: إنّ حالَ هذا الأبكم ليستْ كحالِ أيِّ أبكم؛ بل هو أبكمُ عاجزٌ لا يقدرُ على تحقيقِ شيءٍ، أيّ شيء، ورغم ذلك لم يُعبّر البيانُ القرآنيّ بقوله: (ما يقدر على شيء) الّتي تُخلِّصُ الفعلَ للحال، وإنّما عبّر بـ﴿لَا﴾ فقال: ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، و﴿لَا﴾ عند الأكثر إنّما يخلّصهُ للاستقبال؛ تنبيهًا على أنَّ عجزه لازمٌ ليس ينفكُّ؛ إذ لو بقي بما بقي للحال لتوهّم أنَّه يقدرُ على ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 433.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 248.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 328.

في المستقبل[1]، وفي هذا مبالغةٌ في بيانِ عجْزه عن تحقيقِ أيِّ شيءٍ نافعٍ، فهو في عجزٍ تامٍّ ونقصانٍ كاملٍ[2].

سرّ العدول من الاسميّة إلى الفعليّة في السّياق:

بيان أنّه بَكَمٌ ثابتٌ ترتَّب عليه انعدامُ قدرةٍ على أيّ شيء

أتى البيانُ القرآنيّ بالجملة الفعليّة بعد الاسميّة في قوله تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ولم يَقُلْ: (أحدهما أبكمُ غيرُ قادرٍ على شيء)؛ لثلاثة أمور:

الأوّل: الدّلالة على كمالِ عجزه؛ إذ جمَعَ بين ثباتِ عجْزه بالبَكَم من ناحيةِ كونه لا يَفْهم ولا يُفهِّم وبين تجدّدِ واستمرارِ العجزِ عنده من ناحيةِ عدمِ القدرةِ على فعلِ أيِّ شيءٍ.

الثّاني: التّفنّن في أسلوبِ الكلام؛ بأنْ جمعَ بين الجملةِ الاسميّة والجملة الفعليّة.

الثّالث: الإشارة إلى سببيّة البَكَم في تجدّد عدمِ قدرته على النَّفع.

دلالة التّعبيرِ بالمضارع في ﴿لَا يَقۡدِرُ﴾:

عجزُ الرّجلِ الأبكم الضّعيف، عجزٌ مُتجدِّدٌ لا واقعةٌ مضَتْ

عبّر البيانُ القرآني بصيغةِ المضارع ﴿يَقۡدِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ للدّلالة على أنَّ عجزَ الأبكم ليس واقعةً قد مضتْ؛ بلْ إنّ عجزَه مُتجدّدٌ، وذلك لدلالةِ الفعل المضارع على التّجدّد الحدوثيّ.

غرضُ حذفِ فاعل ﴿لَا يَقۡدِرُ﴾:

في الحذفِ إيجازٌ وإشارةٌ إلى عدمِ استحقاقِ الذّكر

حَذَفَ البيانُ الإلهيُّ فاعلَ الفعل: ﴿يَقۡدِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ لأمريْن:

الأوّل: اختصارًا؛ لأنَّه سَبَقَ ذِكرُه في الكلام، وهو لفظ (الأبكم)، فكان الإيجازُ فيه أبلغَ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 38.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 248.

الثّاني: إشارةً إلى عدمِ أهميّة هذا الأبكم، وأنّه لا يستحقّ أنْ يُذكر.

الغرض من تنْكيرِ ﴿شَيْءٍ﴾:

إقامةُ الحجّة على عابدي ما لا يُرتجى منه شَيْءٌ

في تنكير لفظة ﴿شَيْءٍ﴾ معنيان:

الأوّل: العموم؛ لكون لفظةِ ﴿شَيْءٍ﴾ نكرةً في سياقِ النّفي؛ والمعنى: "أنّ هذا الأبكم لا يقدر على تحقيق شيءٍ نافعٍ ممّا يُرتجَى: من الأشياءِ المُتعلّقةِ بنفسه، أو بغيره بحدْسٍ أو فراسةٍ لقِلّةِ فهمِه وسوءِ إدراكِه"[1].

الثّاني: التّقليلُ والتّحقيرُ، والمعنى: لا يقدرُ على أيّ شَيْءٍ مهما كان قليلًا، وانتفاءُ الشّيْء القليلِ يقتضي انتفاءَ الشّيْء الكثير بطريقِ الأولى.

معنى الواو في ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾:

من كمالِ العجزِ انتفاءُ القُدرةِ على إقامةِ مصالحِ النَّفسِ والغَيْر

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه جملة ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، والمعنى المشترك بينهما أنّ كليهما بيانٌ لعجزِ هذا الرَّجل الأبكم، وأمّا الاختلاف بينهما فيتمثّل في أنّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ جاء بيانًا لعدم قدرتِه على إقامةِ مصالحِ نفسه بعد ذِكْرِ عدم قدرتِه على شيءٍ مُطلقًا[2].

نكتة العدول من الفعليّة إلى الاسميّة:

انعدامُ قدرةِ الصَّنم على النَّفع، يترتّبُ عليه ثباتُ ذلك في حقّ نفسه

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ من الجملة الفعليّة إلى الاسميّة في قوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ ولم يَقُلْ: (لا يقدرُ على شيءٍ ويثقل على مَنْ يتولّى أمره)؛ لأمريْن:

الأوّل: الدّلالةُ على كمالِ عجزه؛ إذ جمَعَ بين تجدّدِ واستمرارِ العجز عنده من ناحيةِ عدمِ القدرةِ على فعْلِ أيّ شيءٍ، وبين ثبوتِ عجزه الكامل من ناحية عدمِ القدرةِ على فعْلِ مصالحِ نفسه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.

الثّاني: التّفنّنُ في أسلوب الكلام؛ بأن جمَعَ بين الجملة الفعليّة والجملة الاسميّة.

الثّالث: الإشارة إلى ترتّب عدم قدرتِه على إقامة مصالحِ نفسه على عدمِ قدرتِه على شيءٍ مطلقًا.

الغرض من تنكير لفظ ﴿كَلٌّ﴾:

تهويلُ ضعفِ حال المَثَل المضروبِ، يُظهرُ مدى عجزِ أصنامهم

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿كَلٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾؛ تهويلًا لضعفِ حال هذا الّذي هو عالةٌ على كافلِه لا يُدبِّرُ أمرَ نفسه، وذلكَ لإفادة مدى عجز أصنامهم الّتي لا جدوى من عبادتها؛ إذ لا تنْفعُ نفسَها فضلًا عنْ أن تُقدِّم لهم نفعًا.

فائدةُ تعدية ﴿كَلٌّ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

استعلاءٌ مجازيٌّ مُكنًّى به عن شدّةِ عجزِ الأبكم

عدَّى البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿كَلٌّ﴾ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، لإفادةِ استعلاءٍ مجازيٍّ مُكنًّى به عن شدّةِ عجزِ هذا الأبكم عن تحقيقِ أيِّ شيءٍ نافعٍ لنفسه؛ لأنّ الإنسانَ لا يحملُ إنسانًا عاجزًا ثقيلًا ويجعله مستَعْليًا على ظهره إلّا إذا بلغ هذا العاجزُ الغايةَ في عجْزه، فهو عالةٌ وثقيلٌ على مَن يتولّى شؤونه من أهله وقَرابته لا يُدبّرُ أمرَ نفْسه.

نكتةُ فصْلِ قوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾:

بيانٌ يُقرّرُ حالَ شركائِهم الّذين هُم وبالٌ على عَبَدَتِهم

فَصَلَ البيانُ الإلهيّ جملة ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ عمّا قبلها وهي جملة ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ جاء بيانًا لِما سبقه من كون الرَّجل الأبكم كَلًّا على مَنْ يتولّى أموره، وذلك بوصفه بقلّة الجدوى؛ فأينما يوجّهه مولاه في عملٍ ليعمله أو يأتي به لا يأتِ بخير؛ أيْ: لا يهتدي إلى ما وجّهَ إليه،؛ لأنّ الخيرَ هو ما فيه تحصيلُ الغرضِ من الفعل ونفعه[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.

معنى ﴿أَيْنَمَا﴾ في قوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ﴾:

﴿أَيْنَمَا﴾ اسمُ شرطٍ جازمٍ في محلّ نصب على الظّرفيّة المكانيّة، وهو متعلّق بفعل الشّرط كما هي القاعدة وقيل بجوابه[1]، بمعنى: في أيّ موضع، والمعنى: "حيثما يوجّهه لا يأتِ بخير"[2]، وقد فسّر المفسّرون ﴿أَيْنَمَا﴾ بـ (حيثما) تنبيهًا على أنّها للمكان[3]، والإتيانُ بهذه الصّيغة في الشّرط الّتي هي ظرفُ مكانٍ أنسبُ مع فعل ﴿يُوَجِّهْهُ﴾ الّذي معناه أنّه يرسله في وجْهٍ مُعيّنٍ من الطريق، يُقال: وجّهتُه إلى موضعِ كذا فتوجَّه إليه[4].

الخيرُ من أصنامهم معدومٌ، وهي شؤمٌ ونذيرُ عذابٍ

فائدة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

عبَّرَ القرآنُ في ضَرْبِ هذا المثَل في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بالجملة الشّرطيّة الّتي تفيد تعليقَ وقوعِ أمرٍ على أمرٍ آخر، وذلك بيانًا لعدمِ قدرة الرَّجل الأبكم على إقامةِ مصالحِ مولاه ولو كانتْ مصلحةً يسيرة[5]، فهو محرومٌ من وجوهِ الخير بالمرّة[6]، وفيها إشعارٌ بأنَّ ضررًا ما يقعُ بسببِه، وهذا فيه بيانٌ يكشفُ مدى عجْز أصنامهم وعدم قدرتِها على إقامةِ مصالحِ مَن يعبدُها، وهذا المثَلُ أقوى من الأوّل فهو من بابِ التَّرقّي[7].

بيان مدى عجْزِ أصنامهم، وعدمِ قدرتِها على إقامةِ مصالحِ مَن يعبدُها

دلالةُ التّعبير بـ﴿يُوَجِّهْهُ﴾، مادّةً وصيغةً:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (وجّه) دون غيره؛ للدّلالة على كمالِ عجز هذا الرَّجل الأبكم، فإنّه رغم أنّ سيّده لا يعطيه المعلومات والتّوجيهات فقط، وإنّما يجعل ما يطلبه منه تِلْقاءَ وجْهِهِ ومقابلًا له من قولهم

عجزُ أصنامهم بلغَ منتهاهُ، فلا تنفعُهم في الخيرِ الّذي يريدونه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 341.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 262.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 340.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 248.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.
(6) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 340.
(7) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 340.

في اللّغة: واجَهْتُ فُلانًا: جَعَلْتُ وجْهِيَ تِلْقاءَ وجْهِه، ويُقال: وجّهته إلى موضعِ كذا؛ أيْ: أرسلته في وجهٍ مُعيَّنٍ من الطّريق فتوجّه إليه[1]، وذلك لتحقيق أمرٍ ما، ولكنّه لا يستفيد ممّا يُعلم ويوجّه إليه، ويُبيّن له كيفيّةَ تحقيقه؛ أيْ: إنّه لا يستطيع تحقيقَ المنفعةِ على اختلافها؛ لأنّه عاجزٌ عن الفهم والاستيعاب، غبيٌّ لا يفهم ما يُراد منه، بخلافِ الأبكم الذّكيّ الّذي يفهم ما يُراد منه؛ وجاء هذا التّعبير بصيغةِ المضارع لإفادةِ استمرارِ هذا الوصف لهذا الأبكم الّذي بلغَ الغاية في عجْزه، وهذا هو حال أصنامهم الّتي يعبدونها من دون الله، فهي حجارةٌ بكماء صمّاء لا تسمعُ ولا تنفعُ مهما حُدّد لها وجهُ الخير الّذي يريدونَه منها.

معنى ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾:

عجْزُ أصنامهم مستمرٌّ في مستقبَلِ حالهم

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ نافيةٌ، وقد استعملها البيانُ القرآنيُّ دون (ما)؛ لأنّ ﴿لَا﴾ تخلّصُ المضارعَ للمستقبل بخلاف (ما) فإنّها تخلّصُ المضارعَ للحال؛ أيْ: أراد الحقُّ سبحانه أنْ يُبيّن استمرارَ حالِ عجْزِ هذا الأبكم؛ أيْ: عجز حال أصنامهم في المستقبَل.

دلالة الباء في شبه الجملة ﴿بِخَيْرٍ﴾:

عدمُ النّفع ملتصقٌ بأصنامهم، وما يعبدون من دون اللهِ لا ينفكّ عنها

حرفُ الجرّ (الباء)، في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ يحتمل معنيَيْن:

الأوّل: الإلصاقُ، والمعنى: أنّ عدمَ إتيانه النَّفع مُلتصقٌ به وملابسٌ له ملابسةً لا تنفكُّ عنه، وهذا هو شأنُ الأصنام.

الثّاني: التّعدية[2].

الغرض من تنكير لفظ ﴿بِخَيْرٍ﴾:

نكّر البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿بِخَيْرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾؛ لأمريْن:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 248.

(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 340.

أصنام المشركين وبـالٌ عليهم لا يَصِلُـهـم منها شيءٌ

الأوّل: إفادة العموم؛ إذِ النَّكرة في سياقِ النَّفي من صيغِ العموم؛ أيْ: نفيُ أيّ شيء من النَّفع، وهذا يدلّ على المبالغةِ في بيانِ عَجْزه؛ لأنّ من النّاس العاجزين مَن يكون عالةً على أهله، ولكنَّ أهله يوجّهونه إلى تحقيقِ أشياء مُعيّنة تُناسبُ وضعَه، فقد يستخدمون هذا الأبكم في الرّعي أو ما شابه ذلك من الأعمال اليدويّة، ولكنَّ هذا الأبكم الّذي ضَرَبَ مثلَه عاجزٌ أيَّما عجْزٍ؛ لأنَّ مولاه أينما يوجّهه لا يأتِ بخير.

الثّاني: التّقليل والتّحقير[1]، والمعنى: لا يأتي بأيّ نفعٍ مهما كان قليلًا، وانتفاءُ الشّيء القليلِ يقتضي انتفاءَ الشّيء الكثير بطريقِ الأولى، وهذا هو حال أصنامهم الّتي يعبدونها من دون اللّه، فإنّها لا تأتيهم بأيّ نفعٍ مهما كان قليلًا؛ بل إنّها مصدرُ الإضرارِ بهم في الدّنيا والآخرة.

غرضُ حذف فاعل ﴿يُوَجِّهۡهُ﴾ و﴿يَأۡتِ﴾:

من بلاغةِ الكلامِ أنْ تتكلّم وأنتَ لا تنطقُ

حَذَفَ البيانُ الإلهيُّ فاعل الفعلَيْن: ﴿يُوَجِّهۡهُ﴾ و﴿يَأۡتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾؛ اختصارًا؛ لأنَّه سَبَقَ ذِكرهما في الكلام، فكان الإيجازُ فيهما أبلغَ، أمّا فعل ﴿يُوَجِّهۡهُ﴾ ففاعله يعودُ إلى لفظ ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾، وأمّا فعل ﴿يَأۡتِ﴾ ففاعله يعود إلى لفظ ﴿أَبۡكَمُ﴾.

نكتةُ فصْلِ قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

استئنافٌ يُبِينُ بالمثَل حالَ مَن لـه الإحـاطـة بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا

لم يذكر البيانُ الإلهيّ العاطفَ بين قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ وما سبقه ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾؛ لأحد أمريْن:

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 340.

الأوّل: لوقوع قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجملتيْن من شبهِ كمالِ الاتصال؛ وذلك أنّ البيانَ القرآنيّ بعد أنْ ضربَ مثلًا رجليْن، وذَكَر الرَّجل الأوّل، فكأنّ سائلًا قد سأل: هذه صفاتُ الرَّجل الأوّل؛ فماذا عن مقابله؟.

الثّاني: لكون قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ المُتضمّن توبيخهم والإنكار عليهم جاءَ نتيجةً لانكشافِ ضلالهم في تسويتهم الأنداد - الّذين لا قدرة لهم على شيءٍ ما - باللّه الّذي له الإحاطة بكلّ شيء قدرةً وعلمًا[1]؛ أيْ إنّ بين الجملتيْن كمالَ اتصالٍ.

بلاغة الاستفهام ونوعه وغرضه:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ معناه التّوبيخ[2]، والتَّعْبيرُ بـ ﴿هَلۡ﴾ أبلغُ من التّعبير بالهمزة[3]، وغرضُهُ عدمُ التّسوية، وذلك بالإنكارِ على المشركين الّذين يسوّون بين الخالق الحقّ الّذي يأمرُ بالعدل والحقّ، وبين الأصنام البُكم الّتي لا تنطقُ بحرف، ولا تقْدِرُ على تحقيقِ أمرٍ لأحد، وإنّما هي عالةٌ على مَن يصنعُها، ومَن ينصبُها، فهي بلا سدنتها لا شيْء، وإذا طلبَ منها أمرٌ لا تأتِ بخير؛ بل الضّرر في توجيهها إلى أمرٍ ما؛ لأنّه طلبٌ من الأصنام، وهذا الشِّرك بعينه.

التّسويةُ بين اللهِ وبين الأندادِ والشّركاء، تَصْدرُ عن جهلٍ وضلالٍ

إذنْ: فالمساواةُ منتفيةٌ من كلّ الوجوه بين الأصنام الّتي يعبدونها من دون اللّه وبين اللّه سبحانه فلا تستوي العبوديةُ مع الحريّة، والعَجْزُ مع القُدرة، والغِنى مع الفقرِ.

نكتةُ العدولِ عن (هل يستوون) إلى ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ

تنويعٌ في العبارة، وتفنُّنٌ في الخطاب، ليتدبر أولوا الألباب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 220.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 391.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 342.

﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ عن قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ الوارد في الآية السّابقة؛ تلوينًا في الخطاب، وتنويعًا في الكلام بالمخالفة بين أسلوب هذا التّمثيل وأسلوب سابقه، وبُعْدًا عن التّكرار؛ لأنَّ تكرير الأسلوبِ بمنزلةِ تكريرِ الألفاظ.

نكتةُ التّعبير بـ﴿يَسۡتَوِي﴾ مادّة وصيغة:

المساواةُ منتفيةٌ من كلّ الوجوه، وفي كلّ الأوقات بين المثلين

عبّر البيانُ القرآنيُّ بمفردة ﴿يَسۡتَوِي﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ دون غيرها من الألفاظ، فلم يَقُلْ مثلًا: (هل يتعادلُ هو ومَن يأمر بالعدل) أو (هل يتكافأ)، وذلك لأنّ لفظ (المساواة) هنا أنسب للسّياق، وذلك لأنّ المساواةَ في أصلِ مادّتها يدلّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بين شَيْئَيْنِ[1]، ومن معانيه: التّكافؤفي المِقْدار لا يَزِيدُ ولا ينقُص، المُماثلةُ والمُعادَلةُ قدْرًا وقِيمَة[2]، فالسّياق هنا في ضرب المَثَل بين رجلَيْن والمقارنة بينهما، والسّؤال عن تمامِ التّماثل والتّكافؤ بينهما من كلّ جانب، فناسبَ التّعبير بلفظ (المساواة) لأنّ العقل يجيبُ بداهةً بنفي المساواة بينهما من كلّ وجه.

كما أنّ التّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾ حيث جاء الفعل بعد الاستفهام الإنكاريّ الّذي غرضُهُ عدمُ التّسوية، ليدلّ على استمرارِ هذا النّفي، فيكون المعنى: إنّ المساواةَ منتفيةٌ من كلّ الوجوه، وفي كلّ الأوقات بين الأصنام الّتي يعبدونها من دون الله وبين الله سبحانه.

فائدة ذِكْر الضّمير ﴿هُوَ﴾ في سياق الآية:

سوءُ حالِ أصنامِهم، استدعى التّوكيدَ اللّفظيَّ لهذا العَجْز

ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ الضّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ ولم يأتِ بدونه، فلم يَقُلْ: (هل يستوي ومَن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوو).

يأمر بالعدل)؛ تأكيدًا على سوء حالِ الأبكم، وعلى بُعْدِ الفَرْقِ بين المِنْطِيق الحكيمِ الصّالحِ، وبين الأبكمِ العاجزِ الغبيّ، كأنَّ الآية تقول: (هل يستوي هذا الأبكم المنصوص على عَجْزه وغبائه ومَن يأمر بالعدل)، فإنَّ الضّمير ﴿هُوَ﴾ تأكيدٌ لفظيٌّ للضّمير المستتر الّذي هو فاعل ﴿يَسْتَوِي﴾ والّذي يعودُ على الأبكم الّذي سبقَ ذِكْرُه[1].

معنى الواو في: ﴿وَمَن﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو المُضْمَر في ﴿يَسْتَوِي﴾ الّذي يعود على الأبكم، وحَسُنَ العطفُ على المُضمرِ المرفوعِ لمّا وكّده ﴿هُوَ﴾؛ لأنّ التّوكيد يعيّنهُ، فكأنّه بارزٌ من الفعل[2]، والمعنى المشترك بين المعطوف والمعطوف عليه أنَّهما الرَّجلان اللّذان ذُكرا في أوّل الآية: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ تمثيلًا بهما، ويتغايران بأنَّ الأبكمَ إمّا تمثيلٌ عن الأصنام الّتي لا تسمعُ ولا تُبصرُ ولا تُغني عن عابديها شيئًا، وإمّا عن الكافر الغبيّ الأبله الّذي آثر الغيَّ على الرّشْدِ، وأنَّ الآمرَ بالعدلِ إمّا تمثيلٌ عن اللّهِ سبحانه الخالقِ لكلّ شيء، وإمّا عن المؤمنِ الجامعِ لكلّ مكرمةٍ.

لا مجال للمُقايسة بين الأصنامِ العاجزة، وبين اللهِ العالمِ القديرِ

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه:

عبَّر البيانُ القرآنيّ بالاسم الموصول مع صلته ﴿وَمَن يَأْمُرُ﴾ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ دون الاسم الظّاهر، فلم يَقُلْ: (هل يستوي والآمر بالعدل)؛ لأمرين:

الأمرُ بالعدل أساسُ كلِّ فضلٍ، وأدنى شيءٍ منه يشملُهُ هذا المثَل

الأوّل: لقصدِ الإبهام الّذي من أسراره التّنبيه على التّعميم؛ لأنّ (مَن) من ألفاظ العموم؛ أيْ: إنّها تشمل كلَّ مَن يأمر بالعدل، ولو بأدنى أمرٍ، وليس بالضّرورة أنْ يكون راسخًا في الأمر بالعدل - الّذي يُفيده التّعبير بـ (الآمر بالعدل) - حتّى يستحقّ هذه المقابلة؛

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 322.
(2) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/ 256.

أيّ: فمَن كان يأمرُ بالعدل بأدنى ما ينطبق عليه ذلك لا يستوي مع الأبكمِ الّذي لا يأتي منه خير، فمن باب أوْلى الرّاسخ في الأمر بالعدل، وهذا أبلغُ في إثباتِ التّوحيد.

الثّاني: للإيماءِ من خلال الاسم الموصول وصلته وما عُطف عليها إلى وجهِ استحقاق الفاضل لهذا الفضل، وهو الأمر بالعدل، والالتزامُ بالصّراط المستقيم، وأنّ التّفضيلَ إنّما يكونُ بالكَلام المتضَمِّنِ للعَدلِ، وهو الحقُّ والصّواب الموافق للواقع، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ أعلى أعمالِ اللّسان على الإطلاق هو النّطقُ بالحقّ، ويندرجُ تحت النّطقِ بالحقّ: الدعوةُ إلى التّوحيد والذِّكرُ والخيرُ والعدلُ والنّصيحة، وغير ذلك من صور الحقّ، ويكون التّفضيل كذلك بالعَمَلِ المُستقيم، وإلّا فإنَّ مجرَّدَ الكلامِ والعَمَلِ قد يكونُ مَحمودًا، وقد يكونُ مَذمومًا؛ فالمحمودُ هو الّذي يَستَحِقُّ صاحِبُه الحمدَ، فلا يستوي هذا والعاجزَ عن الكَلامِ والفِعلِ[1].

دلالة التّعبير بالمضارع في صلة الموصول ﴿يَأۡمُرُ﴾:

من صورِ الكمالِ في العـدلِ، أنْ يكون مُتجدّدًا لا واقعةً منعزلةً

مجيءُ صلة الموصول فعلًا مضارعًا ﴿يَأۡمُرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ دالٌّ على تجدّدِ أمرِ الحقّ والصّواب، ولذا عبَّر البيضاويّ بقوله: "فَهِمُ مِنْطِيق"[2] مبالغةً في النّطق[3]، وزيادةً على نُطقهِ حكيمٌ ينطقُ بالحكمة، وأيضًا يمارسُ هذا الخير، وليس أمره بالعدل واقعةً قد مضتْ، كما أنَّ التّعبير بصيغة المضارع في ﴿يَأۡمُرُ﴾ هي أنسبُ لسياقِ المقابلة بين صورتي المَثَل؛ إذ إنّه عبّر عن عَجْز الأبكم بصيغة المضارع في ﴿يَقۡدِرُ﴾ و﴿يَأۡتِ﴾؛ فالعجزُ المُتجدّد يقابله العدلُ المتجدّد.

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 6/ 80.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235.
(3) الخفاجيّ، كفاية الرّاضي: 5/ 355.

وهو دالٌّ كذلك على تصوير مَن كان هذا أمره بالعدل في مخيّلة السّامع؛ بما يحمله كمالُ المقارنة الّتي تصلُ به إلى الإقرارِ بالتّوحيد للّه وعدمِ الإشراك به.

معنى حرف الجرّ الباء، ودلالته في ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾:

التَّلبُّسُ بالحقِّ والاستعانةُ به هدايةً وتطبيقًا، دليلٌ على غايةِ الكمالِ

الباء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ تحتمل معنيَيْن هما من أشهر معانيها: الإلصاقُ والاستعانة، والمعنى: أنّه يأمرُ وهو ملتصقٌ بالعدل لا ينفكّ عنه، فهو ذو رأيٍ وكفايةٍ ورشدٍ، قد تنزّه عن الجَوْرِ والظّلم والسّفه والباطل، وهو مستعينٌ بالعدل في أمره؛ "لا يأمرُ بذلك إلّا وقد علِمَه وتبصّر فيه"[1]، وفي هذا دلالةٌ على اتّصاف اللّه بغايةِ الكمال والحمد؛ فإنَّ أمرَه بالعدل، وهو عالمٌ به معلّمٌ له، راضٍ به آمرٌ لعباده به، محبٌّ لأهله لا يأمرُ بسواه، وتنزّه عن ضدِّه، فأمره وشرعه عدلٌ كلُّه، وأهلُ العدل هم أولياؤه وأحبّاؤه وهم المجاورون له عند يمينه على منابر من نور، وأمرُه بالعدلِ يتناول الأمرَ الشّرعيّ الدِّينيّ والأمرَ القدريّ الكونيّ، وكلاهما عدلٌ لا جَورَ فيه بوجه، فلا يأمرُ إلّا بحقٍّ وعدلٍ، وقضاؤه وقدرهُ القائم به حقٌّ وعدلٌ[2].

معنى (ال) في لفظ ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ في السّياق:

عَدلُ المؤمن عامٌّ يشمل كلَّ أحدٍ، فهو منبثقٌ من عدلِ الله المُطلق

لام التّعريف في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ جنسيّةٌ؛ تُفيدُ العمومَ؛ أيْ: هو عدلٌ بالنّسبة إلى كلّ أحد، فهو يشملُ الدّعوة إلى التّوحيد والذّكر والخير والعدل والنّصيحة، وغير ذلك من صور الحقّ، وكونها جنسيّة هو الأنسبُ للسّياق الّذي يذكرُ هذا العدل تمثيلًا على عدلِ اللّه المُطلق.

معنى الواو في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تحتمل معنيَيْن:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 393.

الأوّل: عاطفةٌ[1]، والمعطوفُ عليه جملة ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، والمعنى المشترك بينهما أنّ كليهما وصفٌ للنّاصح الصّالح الآمر بالعدل، ولكن في المعطوف عليه زيادةُ بيانٍ بأنّه مع كونه يأمر الآخرين بالعدل هو في نفسه صالحٌ وناصحٌ وعادلٌ، يسير على صراطٍ مستقيمٍ في تحقيق الخير، لا كالأبكم يسيرُ على طريق مُعوَجٍّ؛ لأنَّه لا يفهمُ شيئًا، ولا يملكُ حكمةً؛ أيْ: يأمرُ بعدلٍ وخيرٍ يتّصفُ به، وبهذا يكتمل المثَل في حقّه تعالى فهو مثلٌ "لِكَمالِهِ تعالى في ذاتِهِ وإفاضَتِهِ الخَيْرَ على عباده"[2]، أو مَثَلٌ للمؤمن الجامع لكلّ مكرمةٍ[3].

الثّاني: حاليّة، وجُملَةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، حالِيَّةٌ مَبنِيَّةٌ لِكَمالِهِ في نَفسِهِ، والمعنى: وهوَ في نَفسِهِ مَعَ ما ذَكَرَ مِن نَفعِهِ الخاصِّ والعامِّ عَلى صِراطٍ مُستَقِيمٍ لا يَتَوَجَّهُ إلى مَطْلَبٍ إلّا ويَبلغُهُ بِأقْرَبِ سَعْيٍ[4]، يَأْمُرُ النّاس بِالعَدْلِ، وهوَ في نفسه عَلى صِراطٍ مُستَقِيمٍ على سيرةٍ صالحةٍ ودينٍ قويم غير منحرفٍ إلى طرفي الإفراط والتّفريط[5]، كما أنّه لا يأمرُ بالعدلِ رياءً وسمعةً، أو طلبًا للمدحِ مع إصراره على المعاصي[6].

من علاماتِ الكمالِ الجمعُ بين نفعِ الغيرِ، وصلاحِ الذّات

الغرض من التّعبير بالجملة الاسميّة:

أكَّد البيانُ القرآنيُّ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، استقامةَ هذا الآمر بالعدل في نفسه، وأنّها استقامةٌ ثابتةٌ لا تزول، من خلالِ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّة الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ

ثباتُ استقامةِ النّفس ضروريٌّ، وتكميلُها مُقدَّمٌ على تكميلِ الغير

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/ 359.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 202.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 4/ 290.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 38.

الحُكْم وبَقائِه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ تكميلَ النَّفس مُقدّمٌ على تكميل الغير[1].

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ الّذي يفيد الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ تنويهًا بعلوّ ورفعةِ مقامِ هذا العادل الآمر بالعدلِ، وتأكيدًا لاستقامته؛ بل وتمكّنه من صراطِ الاستقامة، بأنْ "جعلهُ كراكبِ صراطِ الاستقامةِ الجالس عليه"[2]، فقد "استعلى على الصّراطِ المستقيم، والدِّين القويم استعلاءَ الرّاكبِ على المركوبِ، وهو اسْتعارَة تمثيليّة أو تبعيّة"[3]؛ لأنّه شبّه هيئةَ المُتمكّن من الاستقامة على طريقِ الحقِّ، والدِّين القويم، بهيئةِ المُستعلي على المركوب.

مقامُ الآمر بالعدلِ مقامُ عظيمٍ، مستقيم على الحقِّ، والدِّين القويم

بلاغة الاستعارة في التّعبير بالصّراط:

الصّراط المستقيم هو المحجّة الّتي لا التواء فيها، وأُطلق هنا على العملِ الصّالحِ؛ أيْ: استُعير للتّعبير به على ذلك؛ لأنّ العملَ يُشَبَّهُ بالسّيرة والسّلوك، فإذا كان صالحًا كان كالسُّلوكِ، في طَريقٍ موصِلَةٍ لِلْمَقْصودِ واضِحَةٍ[4]، والاستعارة تصريحيّة حيث شبّه العمل الصّالح وطريق الحقّ بالصّراط، فطوى ذِكْر المُشبّه، وصرّح بذِكْر المُشبّه به؛ ليجيء المعنى في صورةٍ واضحةٍ قريبةٍ من الأذهان.

في الاستعارة مبالغةٌ في إبرازِ صلاحِ طريقِ الحقّ، وتحقيقه للمقصود

الغرض من تنكير ﴿صِرَاطٍ﴾:

نكّر البيانُ الإلهيّ لفظ ﴿صِرَاطٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ لإفادة معنى التّفخيم والتّشريف، فعظمته لا يُحدّ حدّها، ولا يقدر قَدْرها، وخاصّة أنّها في سياق المدح في هذا المثَل

صراط الله صراطٌ شريفٌ مفخمٌ، لا يحدّ حدّه، ولا يقدر قدره

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4228.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 341.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.

لهذا الحكيم العالم بالحقائق النّاصح للنّاس يأمرهم بالعدل على علمٍ وبصيرة.

سرّ وصف الصّراط بوصف ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾:

صِـــراط اللـه استـقـامـتُـه مؤكّدةٌ، وسالكُه مهتدٍ

وَصَفَ البيانُ الإلهيُّ الصِّراط بأنّه مستقيمٌ مع أنّه لا يكون إلّا كذلك؛ لعدّة أمور:

الأوّل: التّأكيدُ اللّفظيُّ لمعنى الاستقامة في النّفس والخلق والعمل[1].

الثّاني: الدّلالةُ على أنّ من كمالِ هذا العادل النّاصح الآمر بالعدل، أنّه لا يَتَوَجَّهُ إلى مَطْلَبٍ إلّا ويبلغه بأقرب سعيٍ[2]؛ أيْ: أسهله، لكونه عَلَى صراطٍ قويم، "يذهب إلى الهدف مباشرة، ومن أقصر الطّرق"[3]؛ لأنّ الصّراطَ المستقيمَ هو المحجّة الّتي لا التواء فيها، ولأنَّ سالك الطّريق المستقيم، أقرب إلى المطلوب، من سالِكِ الطّريق غير المستقيم الواصل، محسوسًا كان أو معقولًا[4].

الثّالث: الدّلالة على أنّه على "طريقٍ مستقيم، لا تزلّ قدمه – أي العادل – ولا تتعثّر خطاه، ولا يضلّ به الطّريق"[5]، فهو "مستقيمُ النَّفس ذو طريقٍ حسنٍ، وهذه أعلى صفات الإنسان، فهو مخلصٌ وإخلاصهُ يوجّهه إلى السّبيل المستقيم، والإدراك المستقيم، والكلام المستقيم، والعمل المستقيم والسّلوك العامّ المستقيم"[6].

الغرض من تقديمِ ذِكْرِ مَثَلِ الأبكم على النّاطق:

فـي الـتّـقـديـمِ إمـــعـــانٌ في انتقاصِ الأصنام وبيانِ عَجْزها

قدّم البيانُ القرآنيُّ مَثَلَ الأبْكم على النّاطق؛ إمعانًا في انتقاص الأصنام، ومراعاةً لسياق الآية المُنصبِّ على إنكارِ رفعِ الأصنام عن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4228.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8101.
(4) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 341.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 333.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4227.

الحضيض الّذي هي فيه، وعلى بيان عَجْزها، وليس مُنصبًّا على بيانِ عظمةِ اللّه؛ أيْ: إنَّ المعنى الرّئيس في الآية هو إنكار تعظيم الأصنام، ومساواتها باللّه سبحانه وهي لا شيء، وليس المعنى الرّئيس تفصيلَ جوانب عظمة اللّه ﷻ.

نكتةُ التّرتيب بين الصّفات المذكورة، لكلا الطّرفيْن في الآية:

الرّجل الأول: ﴿أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾، والرجل الثاني: ﴿مَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾.

وضوح ضَعْف الأصنام في جميع أوضاعِها، وعظمة القادر تتجلى في جميع أوصافه وأفعاله

إنّ مَن لا يستطيع النُّطق أو الكلام، وهو ضعيفُ الفهم والتّفهيم لغيره لنْ يَقْدِرَ عَلى فعل شَيْءٍ من الأشياء المتعلّقة بنفسه أو بغيره، ومَن كان هذا شأنه فسيكون ثقيلًا على وليّه وقرابته، ووبالًا على صاحبه؛ لأنّ هذ الرَّجل حيثما يوجّهه مولاه وكافله لقضاء أمرٍ من الأمور يعودُ خائبًا، لعَجْزه، وضعفِ حيلته، وقلةِ إدراكه، فأنت ترى أنّ اللّه تعالى قد وصَفَ هذا الرَّجل بأربعِ صفات، تدلّ على سوءِ فهمه، وقلّة حيلته، وثقله على وليِّ أمره، وانسدادِ طرق الخير في وجههِ وكلّ واحدة ترتّب عليها ما بعدها.

وبالمقابل فإنّ صفةَ الأمرِ بالعدل في المثال المقابل "تقتضي أنّه سمع منهجًا، ووعتْهُ أُذُنُه، وانطلقَ به لسانُه آمرًا بالعدل"[1]، فهو ذو رأيٍ وكفايةٍ ورشدٍ ينفعُ النّاس بحَثِّهم على العدلِ الجامعِ لمجامعِ الفضائل، وتقتضي منه أنْ يكون في نفسه مع ما ذكر من نفعه العامِّ للخاصّ والعامّ يسير على طريقٍ مستقيم لا اعوجاج فيه[2]، ويسيرُ على منهجِ الحقّ والعدل، ويحكمُ بالعدل، فمقالُه حقٌّ، وأفعاله وسيرته مستقيمةٌ، وطريقهُ مستقيمٌ ودينه قويمٌ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8101.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.

بلاغة التّقابل بين صفات كلٍّ من الطّرفيْن:

تقابلٌ بين الحقّ في وضوحه وجماله، وبين الباطلِ في ظلامه وقُبْحه

تظهرُ بلاغةُ مقابلة القرآن الكريم بين صفات كلٍّ من الطّرفيْن من خلال أمريْن:

الأوّل: أنّ وصفَ أحدهما بأنّه يأمرُ بالعدل يتضمّن وصفه بكونه قادرًا عالمًا، وهذا يُناقضُ كون الأوّل أبكمَ ولا يقدر على شيء، وكَلٌّ على مولاه، ولا يأتِ بخير[1]، وسبب حذفِ ما يُقابل الصّفات من النّطق والقدرة والكفاية، للدلالة عليه بقوله: ﴿وَمَن يَأْمُرُ﴾؛ أيْ: والآخر ناطق قادر خفيف على مولاه أيّنما يوجّهه يأتِ بخير[2]، وذكْرُ استوائهما أيضًا دليلٌ على هذا الحذفِ للمقابل[3].

الثّاني: أنّ مُحصّل الأوصاف الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ هو عدمُ استحقاقِ المأموريّة، وملخّصُ هذيْن الوصفيْن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استحقاقُ كمالِ الآمريّة المُستتبِع لحيازة المحاسنِ بأجمعها؛ أيْ إنّهما كمال ما يقابلهما ونهايته، فاختير آخر صفاتِ الكامل المستدعية لِما ذُكرَ وأزْيد حيث جُعل هاديًا مهديًّا، وبذلك تكون الآية قد بيّنت أسوأ حالةٍ للأبكم، وبيّنتْ في المقابل أحسنَ حالة للنّاطق، وأحسنُ حالةٍ للنّاطق هي أنْ يأمر بالعدل، وهو النّطق بالحقّ، وتغييرُ الأسلوب حيث لم يقلْ: (والآخر آمرٌ بالعدل) لمراعاةِ الملاءمة بينه وبين ما هو المقصودُ من بيان التّبايُنِ بين القرينتيْن[4].

والمعنى: حيثُ لم يستوِ الفريقان في الفضلِ والشّرف مع استوائهما في الماهيّة والصّورة، فلأنْ يُحكم بأنّ الصّنم - الّذي لا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 249.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 341.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 571.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.

ينطقُ ولا يسمعُ، وهو عاجزٌ لا يقدرُ على شيء كَلٌّ على عابده يحتاجُ إلى أنْ يحمله ويضعه ويمسح عنه الأذى إذا وقعَ عليه، ولا ينفعه – لا يساوي ربّ العالمين سبحانه في استحقاق المعبوديّة أحرى وأوْلى[1].

نكتةُ تقديم مَثَلِ (العبد والحُرّ) على (الأبكم والنّاطق):

التّمثيلُ بما يُعايشه أهل مكّة أكثرُ إقناعًا لهم

قدّم القرآنُ مَثَلَ (العبد والحرّ) في قوله تعالى: ﴿*ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ على مَثَلَ (الأبكم والنّاطق) في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾؛ مراعاةً لبيئةِ النّزول والابتداء بالأوضح قبل الواضح، وبالأظهر قبل الظّاهر؛ فإنَّ مَثَلَ (العبد والحرّ) منتشرٌ في بيئة مكّة والعرب في ذلك الزّمن أكثر من انتشار حالات البَكَم، فإنّ العبيدَ في مكّة كانوا بالمئات، والأحرارَ فوق ذلك، بينما البُكم قد لا يتعدّون أشخاصًا معدودين، ولذا ضرب القرآن في البداية مثلًا يُعايشه العرب قاطبةً بشكل يوميٍّ مُتكرّر، ثمَّ ضرب المثَل الآخر الّذي لا يعايشه كلّ العرب كالمثَل الأوّل؛ لانّ الإقناعَ هو المقصود بالمثَل، فكلّما عايشَ الإنسانُ المثَل كان أكثر تأثّرًا به[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العدل والإنصاف والمساواة:

العدلُ استواءٌ واستقامةٌ، والإنصافُ إعطاءٌ وأخذٌ، والمُساواةُ تكافؤٌ

بَيْن هذه الألفاظ (العَدْل، الإنصاف، المساواة) تقاربٌ دلاليّ كبير؛ وإذا نظرنا إلى المعنى اللّغويّ والاستعمال لكلٍّ منها نجد فروقًا بينها.

فالعَدْلُ في اللّغة الحُكم بالاستواء[3]، تقول: هو يعدل؛ أيْ: يحكم بالحقّ والعدل، والعَدْلُ من النّاس: المَرْضيُّ قولُه وحُكْمُه، والتَّعادُلُ: التَّساوي، والعَدْلُ: الاستواء والاستقامة، وتعديلُ الشّيْء: تقويمه[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.
(2) القدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 153.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).
(4) الخليل، العين، والفيوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).

والإنْصافُ أصله من نِصْف الشّيْء ونَصِيفهُ: أي شَطْرُهُ، والإنْصافُ في المُعامَلَةِ: كَأَنَّهُ الرِّضا بِالنِّصْفِ[1]، والإنصافُ: أنْ تُعطي من نَفْسِك ما يَسْتَحِقُّ من الحَقِّ كما تأخُذُه، ومُنتَصَفُ اللَّيل والنَّهارِ: وسَطُه[2]، وأنْصَفَ الرَّجلُ؛ أيْ: عَدَلَ، ورَجُلٌ مُتَناصِف: مُتساوي المَحاسِنِ[3].

والمساواة أصلهُ يدلّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بين شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هَذا لا يُساوِي كَذا، أيْ: لا يُعادِلُهُ[4]، والتّساوي: التّكافؤ في المِقْدار لا يَزِيدُ ولا ينقُص، والمُساواةُ: المُماثلةُ والمُعادَلةُ قدْرًا وقِيمَة[5].

وقد فرّق العسكريّ بين الإنصاف والعدل، فذَكَر أنّ الإنصاف هو إعطاء النّصف، والعدل يكون في ذلك، وفي غيره ألا ترى أنّ السّارق إذا قطع قيل: إنّه عدل عليه ولا يُقال إنّه أنصف، وأصلُ الإنصاف أنْ تعطيه نصف الشّيء وتأخذ نصفه من غير زيادة ولا نقصان[6]، إذن يتميّز كلٌّ من العدل والإنصاف والمساواة عن الآخر بأنّ: **العدل**: حكم بالحقّ والاستواء وعدم الجَوْر، **والإنصاف**: أنْ تُعطيَ من نَفْسِك ما يَسْتَحِقُّ من الحَقِّ كما تأخُذُه، فالإنصاف فيه مشاركة، **والمُساواة** التّكافؤ في المِقْدار، لا يزيد أحدهما على الآخر، ولا ينقص عنه، ونقيض الظّلم: الإنصاف، وهو إعطاء الحقّ على التّمام، ونقيضُ الجَوْر: العدل، وهو العدول بالفعل إلى الحقّ[7]، فالعدلُ أعمّ من الإنصاف، والإنصاف أخصّ من العدل.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصف).
(2) الخليل، العين: (نصف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نصف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوو).
(6) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(7) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 172.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»